

قصص

١ - أوراق جدي

تجمّدت مكاني وأنا أشاهد جدي الحاج إبراهيم، بقامته الممتدة نحو السماء، يترنح لأوّل مرّة. جثته ترتعش، تهتزّ، وتطشّ الماء بغزارة، وتكاد أن تهوي على الأرض. دُهلْتُ وأنا أراه ينزل بهدوء، ويزحف على ركبتيه نحو الشجرة العملاقة التي تتوسّط فناء بيتنا الكبير. تقيّاً ظلّ الشجرة واستند إلى جذعها الغائص في التربة، وعيناي المذهولتان ترقبانه باستغراب وهو يغطّ في نوم عميق. لم أشأ إزعاجه وأنا أستوعب مداعبة أوراق الشجرة وهو يتساقط ورقة ورقة على رأسه وجسده بلطف، حتى كاد أن يغمره ويخفيه عن ناظري. جدي في بعض الأحيان عصبي المزاج. وذات مرّة، انتظرتُ ابتهاجه وانشرّاح صدره وسألته عن عمره. أشار بيده إلى الشجرة وقال لي: «أكبرُها بثلاثة أعوام.» مضت ثلاث سنوات والأوراق تتساقط بغزارة يا جدي. صار لونه أصفر، وله رائحة الكافور. حاولتُ ضمّ كلّ الأوراق بيدي ومنع ما تبقى من السقوط، فما قدّرتُ على لملمته وحدي. ابتلعتني الحزن وفكرتُ الآن في أن أوقظ جدي من رقدته.

٢ - ليلة عطش العمدة

عمدة الحيّ، الطاعن في السنّ، يثور عندما يسمع أنّ الضيّبة يلعبون في الخارج، ويُفطر في القسوة عليهم إذا لعبوا في الشارع العامّ أو تجمعوا أمام المحالّ التجارية. أسأل نفسي: هل أخضر له العصا الغليظة والحيال الملساء، أو ما يلزمه لقمعهم، كي أرضيه؟ أجده أمامي يلهث، يفعل كالمجنون، يملأ الحيّ بالصخب الثقيل، ويشتدّ به الظمأ. تسقط من يده المسبحة الطويلة. وقبل أن أناوله كأس الماء البارد، يستجيب له رجال من الحيّ. يتهايمسون معه بحذر شديد. أسمع بعض تمتماتهم الخفية وكلماتهم المختصرة والمفككة:

«امرأة، زوجة، نكاح دائم، يا رجل خليه منقطع، يا شيخ ليكن مسياراً...»

أحدهم ييسمل ويقرأ شيئاً من القرآن والأحاديث النبوية، والعمدة بينهم ينفرج من الهَم ويهوي على حزمة من القطن الناعم.

يبدأ رجل آخر بدعك يده ومسحه بزيت لرج ذي رائحة طيبة.

عيناه فرتا نحوّي. انتبه لوقوفي وتقلّب نظراتي على الرجال. تحرّكت يدي نحوه بحذر. مددتها له وكأس الماء ترتجف بين أصابعي. تناولها مني. ظننتُ أنه سيشرب لشدة ظمئه وأنه سيشكرني أو يجزل لي العطاء. لكنه نظر إليّ بازدراء ونهرني، ثم سكب الماء على وجهي وصدري من دون رحمة، وقال لي: «اغرب عن وجهي أيها الصبي. لا أريد ماء الآن.»



حسن بو حسن: قاصّ وكاتب مسرحي من البحرين. صدرت له مجموعتان: عواطف في أحضان الغول (٢٠٠٠) وخاتون والنسوة وما يشتهون (٢٠١٠).

٣ - هديل بنات الحيّ

بسط كفه الممتلئة بالشعير وانتظر. وكلّما لاحت له حمامة من بعيد مدّ بصره وأرعى يده، ظنّاً منه أنها مغلولة بعض الشيء.

نظراته ترأب السماء والأسطح، حيث مراتع الحمام وأمكنة استراحتها. يمتلئ بالصبر حين يتذكّر أنّ الحيّ بأكمله كان يستيقظ على هديل الحمام وهي تغني وتصفق بأجنحتها وتحلق في سرب طويل فوق رؤوس الرجال الذاهبين إلى العمل ببذلاتهم المتسخة، فيعاود الانتظار.

الشمس تغادر مكانها وتدخل البحر، والحمام ما زال يمارس طقوس البحث عن الجيوب ويحوم في السكون واللون الأسود القادم توّأ.

ابتلعه الليل وفصل الشتاء والبرد القارس والحرّ والوحدة. من بعيد لمح حمامة تلتحف رداءً أسود وتقترب منه. ظنّ أنها تلمس طريقها إليه بحثاً عن الشعير الذي يملأ كفه. وعندما اقتربت منه سقط الشعير من يده المرتعشة على الأرض، لكنها لم تاكل منه حبة واحدة، وراحت تتجول وتبحث فوق الأسطح.

٤ - انتظار

هاجمت السيّد شرف فكرة البحر والصيد. قام على عجل. أحضر الشبكة وسلّة السمك. اطمأنّ إلى صحته وهمّ بالخروج. أخبر زوجته وأولاده أنه ذاهب للصيد ولن يتأخر. قبل رأس والدته وطلب منها الدعاء والرضا. اتصل بإخوانه وأصدقائه وأخبرهم أنه ذاهب للصيد وسيعود محملاً بالأسماك الطازجة. أخبر كلّ من اعترض طريقه أنه اليوم في صحّة جيّدة وذاهب للصيد.

عندما انتصف الطريق، هتف وغنى: «انتظروني سأعود.» كان البحر في استقباله، وأطفال أشقياء ما يزالون يلعبون ويمرحون. خلع

ملابسه كما كان يفعل سابقاً. احتضنه الماء بحنيّة وخبّاه في اللون الداكن. فتح عينيه على سمك يداعب قدميه. بعد ساعات مضنية، همّ بالخروج من البحر مرفوع الرأس. تلفت حوله. وفجأة، هاجمه اليأس حين لم يجد ثيابه في مكانها، والأباليس تركوه في البحر عرياناً وغادروا، والساحل طواه الزمن. قرّر أن ينتظر الظلام ليستتر فيه. طال الوقت ولم يأت الليل. احتار كيف يجمّد السمك الوفير. استمرت الحال على هذا النحو. سيّد شرف لم يعد قادراً على دخول البحر مرة ثانية، والأطفال كبروا، ولا شيء أمامه سوى انتظار عودة الساحل ليخرج من البحر.

٥ - ابتلاع الجسد

كلّما تكاسلت عن الذهاب معه إلى البحر، قال لي: «قم، سأريك أملاكي التي هي لك بعد حين.» فأردّ عليه: «بعد عمر طويل يا أبي.» يا لحنكته وروعته! كان يعرف كيف يتلع الخمول من جسدي، ويجرجرنني بالكلام ويردّني خلفه وأنا أصفّق طرباً لمرافقته. كان يث في الحماس والتطلع إلى المستقبل بعينين ثاقبتين. وكلّما توغلنا في البحر ولمح باخرة قادمة من بعيد، قال لي: «هي ذي يا ولدي. انظر! هذا المركب ملكي.» تأتي باخرة عملاقة أخرى في اتجاهنا، فيعني لي من جديد ويطرّني أكثر: «هناك يا ولدي، إنها قادمة، هي لي أيضاً. وتلك التي على يمينك، والأخرى التي على شمالك، والتي خلّفك؛ كلّها لي ولك من بعدي.» فأطرب حتى الثمالة.

امتأ البحر بالبواخر العملاقة وصار ميناء ومرسى. أشار إلى كلّ البواخر من دون استثناء، ورحل عني وهو مطمئن القلب. لكنني، على كثرة رحلاتي البحرية معه، لم أركب سوى هذا القارب الصغير، المسجى أمام البيت.

